حديث السعودية
الأحد 3 ربيع الآخر 1446هـ
الموافق 6 أكتوبر 2024م

«استعراض النقص» باليونيفورم

عبدالمحسن البدراني
رئيس التحرير

بينما كنت في مطار الرياض، لفت انتباهي مشهد لأسرة مكونة من أب وأم، وابنة وثلاثة أبناء. أصغر الأبناء كانت تحمله الخادمة على كتفها، وعلى كتفها الآخر شنطة صغيرة، بينما تجر خلفها شنطة أخرى. الخادمة كانت ترتدي «اليونيفورم» الوردي المخصص للعمل، وعلى وجهها الكثير من التعب، وكأنها لا تريد النظر إلى أحد. كانت صامتة كجماد، وفي صمتها كلام كثير لا يقال. الأسرة بدت منشغلة، قادمة من مدينة أخرى إلى الرياض، لكن المشهد برمته كان لافتا للأنظار بشكل لا يمكن تجاهله.

هل يعتقد هؤلاء الأشخاص أن وجود الخادمة بزيّها الرسمي في الأماكن العامة يزيد من بريقهم الاجتماعي؟ قد تكون فكرتهم أن استعراض الخادمة بزي العمل هو نوع من «الفخامة» و«الهيبة». وكأن الخادمة ليست إنسانا له مشاعر، بل قطعة من الديكور الشخصي المتحرك. والأسوأ من ذلك، وكأنها أصبحت أسيرة هذا الزي، يجب أن تلبسه داخل المنزل وخارجه من أجل أن تميّز عن باقي الأسرة. السؤال هنا: هل يظنون أن الناس ستنظر إليهم وتقول: «ما شاء الله، هذولا عايشين الرفاهية»؟! الحقيقة، الناس ستنظر وتقول: «هذولا وين عايشين؟!»

من يصطحب الخادمة بالزي الرسمي إلى مكان عام، كأنه يقوم باستعراض مجاني للجميع: «شوفوني، أنا عندي خادمة!» وكأن الخادمة أصبحت جزءا من صورتهم الاجتماعية المتكاملة. ولكن، يا ترى، هل هذا التصرف يظهر قوة أو يعكس نوعا من الفخر؟ الحقيقة المؤسفة أن هذا التصرف لا يكشف إلا عن جهل في القيم الإنسانية، وهذا التمييز المقيت لا يقوم به إلا وقح ذو أخلاق قبيحة.

بعضهم قد يقول: «هي لابسة زيها الطبيعي، مو مشكلة!» لكن المشكلة ليست في اللباس نفسه، بل في الفكرة التي تقف وراء هذا التصرف. عندما تصطحب خادمة وهي ترتدي زي العمل في مطعم أو مول، أنت تختزلها في دور الخادم فقط، وكأنها لا تستحق أن تكون أكثر من ذلك. كأنك تقول: «هذه وظيفتها في الحياة، ومو مهم ترتاح أو تكون مثلنا». وهذا، يا عزيزي، ليس رفاهية ولا استعراضا، هذا استنقاص للإنسانية.

والغريب أن كثيرا ممن يقومون بهذا التصرف ليسوا من أصحاب الثراء الفاحش، بل من الذين يحاولون إظهار أنفسهم بطرق غريبة. يعني، لو فكروا قليلا، قد يدركون أن هذا الاستعراض لا يرفعهم، بل ينزلهم؛ لأنه يكشف أنهم لا يملكون إلا هذا النوع من «الاستعراض السطحي». الخادمة هنا لا تعمل فقط عندهم، بل تستخدم كوسيلة للتفاخر، وهذه قمة الجهل.

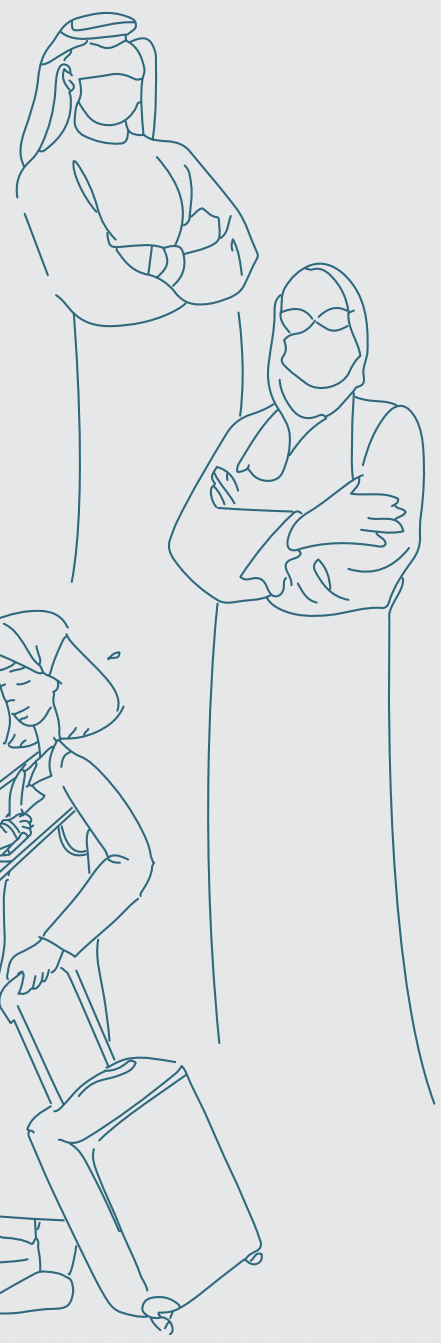

لكن لحسن الحظ، هذا السلوك ليس شائعا بين الجميع. هناك الكثير من الأسر السعودية التي تحترم خدمها، وتعتبرهم جزءا من العائلة. هؤلاء يراعون مشاعرهم، ويهتمون بكرامتهم، ولا يحولونهم إلى أدوات استعراض في الأماكن العامة. مثل هذه الأسر تعكس القيم الحقيقية التي نعرفها ونفتخر بها.

في النهاية، يا من تستعرضون خدمكم بزيهم الرسمي، فلنكن واضحين: الرفاهية الحقيقية لا تأتي من استعراض إنسان وكأنه قطعة ديكور متحركة. من يعتقد أن قيمة الرقي تقاس بعدد الخدم أو بزيّهم الموحد، فهو مخطئ ومجرد من الفهم العميق للإنسانية. إن استعراضك لخدمك بهذه الطريقة لا يعكس سوى فقر أخلاقي واضح، ويظهر أنك شخص تائه، غارق في عقد نقص تحاول إخفاءها بالتقليل من شأن الآخرين.

إن كنت تعتقد أن هذا التمييز البغيض سيعزز من صورتك الاجتماعية، فأنت واهم. لأن من يعامل إنسانا بهذه الطريقة لا يكشف إلا عن قبح داخلي، ويفقد احترامه الحقيقي في أعين من يفهمون معنى الإنسانية.